مقدمة

أبو حامد الغزالى شخصية من أعظم الشخصيات فى الفكر الإسلامى. وتعتبر كتبه من أعظم الكتب التى كان لها تأثير عميق فى الناس فى مختلف العصور..

ولقد قرأت كتب الغزالى وأعجبت بها إعجابًا شديدًا ، وقرأت قصة حياته ،واستوقفنى كثيرًا .. إنسان قلق .. وعقلية جبارة .. يريد أن يعرف .. وطريق المعرفة صعب للغاية .. والوصول إلى الحقيقة عملية شاقة وشائكة .. لأن وسائل الوصول إلى الحقيقة مختلفة .. والأسلحة التى يستخدمها الإنسان فى سبيل الوصول إليها متعددة .. فهناك العقل .. وهناك الحواس .. وهناك المنطق .. وهناك الفلسفة .. وما أكثر الطرق التى تحاول الوصول إلى الحقيقة! ولكن الحقيقة نفسها شىء صعب المنال.. ولو كان الوصول إلى الحقيقة عملية سهلة أو هينة .. ما رأينا كل هذه المذاهب الفلسفية فى كل العصور .. فهى مذاهب مختلفة أشد مايكون الاختلاف، ورواية كل مذهب تختلف عن رواية المذاهب الأخرى .. وكنت أقول لنفسى وأنا أقرأ كتب الفلسفة لماذا كل هذه الحيرة ؟

ولما كل هذا الإجهاد للعقل والفكر للوصول إلى الحقيقة؟

كنت أعتقد أن الإسلام هو دين الفطرة .. دين البساطة .. ويكفى أن يؤمن الإنسان إيمانًا مطلقًا باللّه .. وبرسوله .. فإذا ما وصل إلى هذا الحد .. فإن كل ما يخبرنا به الرسول ﷺ هو الحقيقة التى يجب أن نؤمن بها بلا حدود .. وهذا ما توصل إليه الإمام

الغزالى نفسه بعد أن تعمق فى الدين .. ودرس الفلسفة .. وكل علوم عصره.. وكان منتهى آماله .. أن يرزقه الله إيمان العوام..

غير أننى عدت إلى نفسى .. إن كل مشتغل بالفكر لا بد أن يمر بمرحلة حرجة وهو يحاول أن يعرف أسرار الوجود .. وأسرار الحياة.. ويعرف الكثير عن العالم الذى يعيش فيه ، وعالمه الذى سوف يبعث إليه.. إنها رحلة شاقة ومضنية .. ولكنها شائقة وجذابة فى نفس الوقت.. والإسلام نفسه يحضنا على التأمل .. وعلى فهم أسرار الحياة .. والبحث وراء العلم .. وراء فهم أسرار الحياة .. وما أكثر آيات القرآن الكريم التى تحث على العلم ، وما أكثر أحاديث رسول الله الداعية إلى العلم..

ولقد خاض الغزالى هذه البحار جميعها .. وهى بحار عميقة.. وواسعة .. ولا شاطئ لها .. خاض بحار العلم والجدل والفلسفة.. وعلم الكلام ودرس كل ما فى عصره من خير وشر .. ثم وصل إلى الشاطئ الآمن .. الذى ارتضاه لنفسه بعد رحلة شاقة خاضها .. وكانت فلسفته .. وكانت كتبه.. مصابيح هداية للناس فى كل العصور..

وأمام هذه الشخصية المبهرة غاية الإبهار .. وأمام هذه العقلية الجبارة.. عقلية الغزالى .. كان أملى أن أقدم هذه الدراسة المبسطة.. والسهلة للقارئ؛ لعله يغترف من هذا البحر الزاخر..

إن هذه الدراسة التى سوف تقرؤها .. وتجدها سهلة وميسرة.. هى نتاج قراءات جادة وصعبة طويلة ..

ولعلى أكون قد وفقت..

مقدمة الطبعة الثانية

لا شك أن الإمام الغزالى كان قمة فكرية سامقة ، ويكفى أنه استطاع أن يوقف زحف الانبهار بالفلسفة ونظرياتها حتى خشى الناس من الخوض فى غمارها . . لأن الخوض فى الفلسفة إنما هو خوض فى بحر بلا شاطئ . . إنه سير فى طريق بلا نهاية . . إنه غوص فى مشكلات لا حل لها!

أذكر أننى حاورت يومًا الدكتور أبو الوفا التفتازانى الذى كان شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، وأستاذ التصوف بجامعة القاهرة حول التصوف وهل هو نزعة روحية أم نزعة فلسفية؟

يومها قال ما ملخصه:

إن التصوف الإسلامى نزعة روحية؛ لأنه يتجه أساسًا إلى مخاطبة القلوب وتصحيح أعمالها . . فهو تخلق وسلوك . . والتخلق يقتضى تصحيح النيات الباعثة على الأعمال بحيث تأتى هذه الأعمال محققة لمعنى الإخلاص، لقوله تعالى:

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٦] .

ويقول الله تعالى: ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِص ﴾ [الزمر: ٣] .

ويقتضى التخلق محاسبة النفس وتخليها عن الأخلاق الفاسدة.. والتمسك بالأخلاق الحميدة .. فتتخلى عن الحقد والحسد والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والكذب والكبر والعجب وغير ذلك ، وهذا من أعمال القلوب .. وغاية الطريق إلى الله عند الصوفية .. التحقيق بمعرفة الله تعالى ،وحبه الذى هو مصدر كل طاعة ، وقد جعل الله محبته مصدرًا لكل الخير ، ولكل طاعة فى قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقد جعل الصوفية بداية الطريق إلى الله مجاهدة النفس ، وغايته القصوى معرفة الله .. وبين المجاهدة والمعرفة ينتقل الصوفية فيما يعرف بالمقامات والأحوال .. فالمقامات كالتوبة والزهد والصبر والرضاء والتوكل والصدق واليقين ومحبة الله ورسوله ، والأحوال كالأنس بالله والهيبة منه والقبض والبسط والخوف والرجاء والفناء واليقين.

والمقامات والأحوال هى مظهر الترقى الروحى للسالك لطريق الله حتى يصل إلى درجة العرفان بالله فى تجربة دينية ذوقية أساسها المعاناة الحقيقية .. ولذلك قال الصوفية:

- من ذاق عرف.

ولعلهم استخدموا كلمة الذوق من حديث الرسول ﷺ : ذاق

طعم الإيمان من رضى بالله ربًا وبمحمد رسولاً وبالإسلام دينًا.

فالصوفية هى الصفاء والطهر والنقاء..

ونعنى هنا بالصوفية الذين التزموا بالكتاب والسنة ، فيقيمون ما أمر الله ورسوله ، وينتهون عما نهى عنه الكتاب والسنة .. وهم الذين يتقربون إلى الله بما فرضه الله عليهم .. ويزيدون بمجاهدة النفس والهوى والشيطان بالنوافل وذكر الله ذكرًا كثيرًا ..

ولا أعنى به هذا التصوف الفلسفى .. وما فيه من شطحات .. وما فيه أيضًا من روافد دخيلة على الإسلام..

ولذلك فالصوفية لا تعنى إلغاء العقل .. والإمام الغزالى يقول:

- إن العقل هو ميزان الله تعالى..

والتكليف الشرعى كله ينبنى على العقل .. بل فهم الخطاب الشرعى يستند إلى العقل أساسًا..

وإذا كان التصوف الإسلامى منهاج الوصول إلى رضا الله والقرب منه والأنس به ، فهو الوسيلة لتحقيق ما يصبو إليه المؤمن بالفوز بما عند الله فى الدنيا والآخرة .. ومن هنا فقد توقفت عند ما كتبه الدكتور / عبدالحليم محمود فى كتابه «قضية التصوف المنقذ من الضلال» .. إنه يقول:

أما أن التصوف دخيل على الإسلام فيكفينا فى الرد على ذلك أن نذكر ثلاثة آراء:

أولها : للشيخ عبدالواحد يحيى وهو فيلسوف مسلم صوفى . .

والثانى : للمستشرق الشهير الأستاذ «مسينيون» الذى يعتبر أعظم باحث فى التصوف بين المستشرقين فى العصر الحاضر . .

والثالث : لصاحب كتاب «التبصير فى الدين» وهو معنى أشد عناية بالرد على كل ما يخالف مذهب أهل السنة، ومؤلفه هو الإمام الكامل الفقيه الأصولى المفسر الأسفراينى . .

ويرى الشيخ عبد الواحد أن التصوف يكون جزءًا جوهريًا من الدين الإسلامى . إذ إن الدين يكون ناقصًا بدونه ، بل يكون ناقصًا من جهته السامية ، أعنى جهة المركز الأساسى ، لذلك كانت فروضًا رخيصة تلك التى تذهب بالصوفية إلى أصل أجنبى يونانى أو هندى أو فارسى ، وهى معارضة بالمصطلحات الصوفية نفسها ، تلك المصطلحات التى ترتبط باللغة العربية ارتباطًا وثيقًا . .

وإذا كان هناك من تشابه بين الصوفية وما يمثلها فى البيئات الأخرى فتفسير هذا طبيعى لا يحتاج إلى فرض (الاستعارة) ذلك أنه ما دامت الحقيقة واحدة . . فإن كل العقائد السنية تتحد فى جوهرها وإن اختلفت فيما تلبسه من صور . .

ويقول الأسناد ماسينيون : وقد بين «نيكلسون» أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل فى الإسلام غير مقبول . .

والحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأفكار التى اختص بها

متصوفة المسلمين نشأت فى قلب الجماعة الإسلامية نفسها فى أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث ، وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث وما حل بالأفراد من نوازل . . ويذكر صاحب «التبصير بالدين» ما يمتاز به أهل السنة عن أهلهم من «الخوارج» و«الروافض» و«القدرية» فيذكر أن سادس ما امتاز به أهل السنة هو علم التصوف . . والإشارات وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، ولم يكن قط لأحد من أهل (البدعة) فيه حظ ، بل كانوا (محرومين) مما فيه من الراحة والحلاوة والسكينة والطمأنينة . .

وقد ذكر أبو عبدالرحمن السلمى من مشايخهم قريبًا من ألف ، وجمع إشاراتهم وأحاديثهم ، ولم يوجد فى جملتهم قط من ينسب إلى شىء من بدع القدرية والروافض والخوارج . .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض والتبرى من النفس ، والتوحيد بالخلق والمشيئة ، وأهل البدع ينسبون الفعل والمشيئة والخلق والتقدير إلى أنفسهم . . ذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد .

* * * * *

إن الإبحار فى عالم الإمام أبى حامد الغزالى هو إبحار فى عالم إنسان آتاه الله من الموهبة ، والنضوج العقلى ، والتفتح الذهنى ، ما أثار الإعجاب به وبفكره فى عصره وما تلاه من العصور حتى يومنا الحاضر . . وقد خدم الإسلام خدمة جليلة بأفكاره الواضحة . . وهو

يشرح الفكر الإسلامى شرحًا عظيمًا . . مبينًا جوانب العظمة فيها كما يرجع إليه الفضل فى إبراز ما فى الإسلام من طاقات روحية هائلة ، يمكن من خلالها أن يعرف الإنسان أن الالتزام بالقيم الإسلامية والروح الإسلامية ، هو فى الواقع ارتفاع بإنسانية الإنسان إلى أعلى الذرا ، ومن خلالها يتحقق للمؤمن أن يفوز بما عند الله فى دنياه وأخراه . .

وانظر إليه وهو يحدثنا بأسلوبه الواضح الجليل ، وقدرته على أن يصل بكلماته إلى القلوب والعقول ، وهو يحدثنا عن وفاة الرسول ﷺ :

اعلم أن رسول الله ﷺ أسوة حسنة حيًا وميتًا ، فعلاً وقولاً ، وجميع أحواله عبرة للناظرين ، وتبصرة للمستبصرين ، إذا لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه ، وكان صفيه ورسوله ونبيه ، فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته ، وهل آخر لحظة بعد حضور منيته ، لا . . بل أرسل إليه الملائكة الكرام الموكلين يقبض أرواح الأنام ، فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها ، وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان ، ، وخيرات حسان . . بل إلى مقعد صدق فى جوار الرحمن ، فاشتد مع ذلك فى النزع كربه وظهر أنينه ، وترادف قلقه وارتفع حنينه ، وتغير لونه وعرق جبينه ، واضطربت فى الانقباض والانبساط شماله ويمينه ، حتى بكى لمصرعه من حضره ، وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره، فهل رأيت منصب النبوة . . دافعًا عنه مقدورًا ؟ وهل راقب

الملك فيه أهلاً وعشيرًا ؟ وهل سامحه إذ كان للحق نصيرًا وللخلق مبشرًا ونذيرًا ؟ هيهات بل امتثل ما كان به مأمورًا ، واتبع ما وجده فى اللوح مسطورًا ، فهذا حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود، والحوض المورود ، وهو أول من تنشق عنه الأرض ، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض ، فالعجيب ألا نعتبر به ، ولسنا على ثقة بما نلقاه.. بل نحن أسرى الشهوات ، وقرناء المعاصى والسيئات ، فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وحبيب رب العالمين . . . ، الخ.

بهذا الأسلوب السهل الممتنع فى كتاب «إحياء علوم الدين» . . وفى بقية كتبه ومؤلفاته . . نجد المفكر العميق الذى يكتب من خلال فهم عميق للإسلام . . ومن هنا فنحن نرى فيه وهو مجدد القرن الخامس الهجرى . . مازال فكره مجددًا للفكر حتى عصرنا الحاضر . .

ومع هذا الإمام الجليل . . نعيش رحلة حياته وفكره . . حتى انتقل إلى جوار ربه فى رضا من الله ورضا من الناس.